الباب الثالث

التأسيس البياني لحرية الرأي في الإسلام

الفصل التمهيدي: التأسيس البياني للحريات وإقامة العبودية الحقة

الفصل الأول: التأسيس البياني في خلافة آدم وبناء الإنسان الحر

الفصل الثاني: التأسيس البياني في خلافة الأمة وبناء المجتمع المدني

الفصل الثالث: التأسيس البياني في خلافة التمكين وبناء المدينة الإسلامية

التأسيس البياني للحريات وإقامة العبودية الحقة

يقوم التأسيس البياني في القرآن الكريم على قاعدة كبرى هي بيان الرشد، أي بيان ما فيه رشد الإنسان بمعارفه وعقله وعلمه، لأن هدف القرآن الكريم إيجاد الإنسان المعرفي، حتى يسوس نفسه بوعي وإدراك وتفكير، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[1]، أي إنَّ الدين لا يؤسس لنفسه على إكراه الناس على الاتِّباعِ الأعمى ولا الاتّباع القسري كما يظن من يتعامل مع الدين من خارجه، ولا يقيم نفسه في قلوب الناس بالتسليم فقط كما يدعي ذلك أشرار الفلاسفة وأتباعهم، الذين يحصرون المعارف العقلية بالفلاسفة دون غيرهم، إن هذا الظن لا يقوم على أصل صحيح ولا رأي سديد.

إن الدين والاعتقاد في الإسلام يقوم على التصديق العقلي والإيمان العلمي، أي على أساس التفكير العقلي والدراسة العلمية أولاً، بدليل كثافة المناهج المعرفية في القرآن الكريم والتي سبق بيان بعضها، فالدين الذي يحرك كل هذه المناهج المعرفية والعقلية والعلمية هو دين المعرفة والعقل والعلم فعلاً، والخشية أن يصبح ظن كثير من المسلمين مثل ظن الجهلة وأشرار الفلاسفة من أن الإيمان يقوم على التسليم القلبي فقط، فهذا ظن مخالف لكل مناهج القرآن المعرفية أولاً، ومخالف للمنهج النبوي في الدعوة إلى الإسلام دون إكراه ولا جبر ثانياً، فالإيمان في الإسلام يقوم على بيان الهدى والعلم الحق، وبيان الرشد من الغي هو الذي يؤسس لحرية الاختيار، وجعل الإنسان يختار ما يصدق به بحرية علمية، مهما كان مجال الوجود الذي يعيش فيه، إن كان فردياً أو اجتماعياً أو سياسياً.

(1) سورة: البقرة، الآية رقم (256).

لقد أطلق الإسلام على الوجود البشري في الأرض اسم الخلافة، وأطلق على آدم اسم الخليفة، ومعنى الخليفة: المخلوق الحر والجديد، قال ابن فارس في المعنى اللغوي: (الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة: أحدها أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه)[1]، وقيل: (خلف: ضد القدام.. والخلافة: النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف)[2]، نستنبط من المعنى اللغوي أن من معاني كلمة الخلافة هو التجديد، لأن مجيء الشيء بعد شيء يقوم مقامه، دليل على أن هناك شيئاً جديداً يقوم مكان الشيء القديم، والشيء الذي قام بعد القديم لا بد أن يكون شيئاً جديداً وإلا لم يكن هناك تمييز بين القديم والجديد، أي لم يكن هناك خلافة، أي إنَّ الخلافة لا تتحقق إلا بمعنى التجديد وزوال القديم، وأما المعنى الاصطلاحي لكلمة الخلافة فهو ما سوف نتبينه في الفصول التالية.

إن القرآن الكريم يحدثنا عن ثلاثة مجالات من الوجود البشري في الأرض، أو ثلاثة أنواع من الخلافة، وقد بين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ذلك بعدة مناهج معرفية يشملها المنهج المعرفي البياني، فالمنهج المعرفي البياني يشمل كل المناهج الإيجابية، أي المنهج المعرفي التعليمي والبرهاني والاعتباري والمصالحي والمآلي التي سبق بيانها، وغيرها من المناهج التي تعتمد على بيان الهدي الحق، وتعليم الصراط المستقيم، وتعليم الكتاب بما فيه من قيم تهدي الإنسان والناس للتي هي أقوم، هذا المنهج يوصف بالمصطلح الفلسفي بالمنهج الإيجابي، فهو يعطي المعرفة الصحيحة، ويعلم ما هو صواب، ويبين الرشد، وقد بين الإسلام هذه المناهج البيانية في ثلاثة مجالات من أنواع الخلافة الإنسانية على الأرض:

الخلافة الأولى هي خلافة آدم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3]، والخلافة الثانية هي الخلافة الجماعية أي خلافة الأقوام والأمم والمجتمعات كما في قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[4]،

(1) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 327.

(2) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 293.

(3) سورة: البقرة، الآية رقم (30).

(4) سورة: الأنعام، الآية رقم (133).

والخلافة الثالثة هي خلافة التمكين في الحكم السياسي كما في قصة داود ﷺ في قول الله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾[1]، وفي سورة النور المدنية: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾، والفارق بين أنواع الخلافة الثلاثة هي:

الخلافة الأولى: خلافة آدم، ونصفها **بالخلافة الآدمية**، وخصائصها أنها خلافة إنسانية عامة ومطلقة ومتجددة، وجودها فردي، تقوم على الوظيفة الفردية للإنسان في الحياة الدنيا، والمسؤولية الفردية في الآخرة، وهي أساس كل خلافة بعدها، فما بعدها يبنى عليها، وشرعية وجودها طبيعية، فإذا وجد الإنسان في الطبيعة والكون ـ منذ ولادته وحتى وفاته ـ فهو صاحب خلافة آدمية حتماً، وكل مولود جديد هو خليفة جديد في جسمه وعقله وحريته، فلا يملك أحد من البشر هدم خلافته، ولا يحق له إبطالها ولا إفسادها، ولا انتهاك حقوقها في الخلافة الفردية.

الخلافة الثانية: خلافة الأمة، ونصفها **بالخلافة الاجتماعية**، وخصائصها أنها إنسانية تشمل جماعة الناس والشعوب والأقوام والأمم، وجودها جماعي بين الناس، وظيفتها جعل الاجتماع البشري متمدناً ومتجدداً، أي يقوم مجتمعها على العلم والوعي والإيمان والأعمال التي تنفع الناس في الدنيا وتحقق لهم المصالح على أساس الأخوة والمساواة، وشرعية وجودها هو انبثاقها عن إرادة الناس الذين تجمعهم، وكل امة تخلف أمة، ينبغي أن تكون أمة متجددة في أشخاصها وعقلها الجماعي، وإلا كانت فاقدة لمعنى خلافتها وتحقق وجودها الذاتي والمعنوي.

الخلافة الثالثة: خلافة التمكين، **ونصفها بالخلافة السياسية**، وخصائصها أنها إنسانية واجتماعية وقيادية، وجودها في القيادة والحكم والسياسة، عمل بها الأنبياء فردياً وتجلت في خلافة النبي داود ﷺ، وعملت بها الأمم جماعياً وتجلت في خلافة الخلفاء الراشدين بعد ختم النبوة، وظيفة خلافة التمكين الإسلامية هي أداء الأمانات إلى أهلها

---

(1) سورة: ص، الآية رقم (26).

والحكم بين الناس بالعدل، وسياستها هي الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشرعية وجودها هو انبثاقها عن إرادة الأمة والمجتمع الذي اختارها وبايعها، وكل خلافة تمكينية جديدة ينبغي أن تكون خلافة مجددة في سياستها وتميزها عن الخلافة التي قبلها.

هذه المجالات الثلاثة للخلافة في الأرض تقوم على أساس الحرية والعبادة الحقة معاً، أي على العبادة الصحيحة الحرة، وإبطال كل عبودية باطلة، والعبودية الحقة هي التي تحافظ على حرية الإنسان ولا تتناقض معها، لأن الحرية نقيض العبودية في التعريف اللغوي، فلا يكون الجمع بين العبودية والحرية إلا إذا كانت العبودية محافظة على الحرية وغير ناقضة لها، والعبودية الحقة التي لا تتناقض مع الحرية هي عبادة الإنسان لمن خلقه وخلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، وهو الله سبحانه وتعالى، فهو الخالق المستحق للعبادة وحده، وهو ما تحقق في دين الإسلام، الذي حصر العبادة لله وحده سبحانه وتعالى في رسالات كل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فعبادة الله سبحانه وتعالى هي التي تحافظ على الحرية الإنسانية بل تدعو إليها وتحرم انتهاكها، ولا يوجد عبودية لغير الله تعالى تحافظ على حرية الإنسان إلا كذباً وزوراً وبهاتاً، وهو ما سوف نتبينه في الفصول التالية.

الإسلام حرص على بيان أصول العبادة الصحيحة حتى تحافظ على كرامة الإنسان والناس وتحافظ على حريتهم، ومن شروط العبادة الحقة:

الأول: **أن تكون العبادة خالصة لله وحده لا شريك له**، أي إنَّ يكون التعظيم والتقديس لله وحده، فهو رب العالمين ورب العرش العظيم، وكل عبودية لغير الله تعالى هي عبودية باطلة وظالمة للإنسان، ومنتهكة لحقوقه وحريته حتماً، لأنَّ من لا يكون عبداً لله تعالى، لا بد أنه حتما عابِدٌ ومقدِّسٌ لشيء آخر، إما حجراً أو بقرة أو شجرة أو أرضاً أو زعيماً أو صنماً بشرياً، وهذا التقديس وإن لم يطلق عليه أهله عبادة، هو استعباد ظالم للإنسان، وفيه انتهاك لحقوق الإنسان، وانتهاك لحريته، وبالأخص انتهاك لحرية الرأي.

قال الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ

وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾، فهذا نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يجعل لسان الصدق وحرية الرأي مناقضة للعبودية الباطلة، وأن من يعبد الله بحق هو من يدعو الله أن يجعل له لسان صدق، ولسان الصدق يستعمل في حرية الرأي والقول والنصيحة والتوصية للناس.

الثاني: **أن تكون العبادة مشروعة في كتاب الله تعالى، ومبينة ومطابقة لسنة نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام**، أي إنَّ يكون أداء العبادة صحيحاً بمعيار الشرع المنزل من رب العالمين، كتاباً وسنة، وكل عبادة على غير هدي النبي عليه الصلاة والسلام، باطلة شرعاً، وظالمة لحقوق الإنسان وحريته حتماً، مصداقاً لقول الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[1].

هذه شروط العبادة الحقة، فالعبادة اتِّباعٌ وليستْ ابتداعاً، بل العبادات كلها مبناها على الشرع والاتباع، وليس على الهوى والابتداع[2]، وفي السيرة النبوية الصادقة دليل على مكانة العبادة الصادقة الحقة بين الحريات الأخرى للإنسان، وبالأخص حرية الرأي والرأي الحر، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أسس علاقته مع الناس كافة على حرية الرأي والتفكير الحر والقرار الذاتي العقلاني، وأن هذه العلاقة العقلانية ليست فقط في علاقات المسلمين والمؤمنين وإيمانهم وثقافتهم الداخلية، وإنما في علاقاته مع غير المسلمين أيضاً، من العرب وغير العرب، سواء كانوا من الوثنيين أو من أهل الكتاب أو من الملوك السياسيين أو من غيرهم، قال الإمام البخاري في صحيحه:

(حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن عبد الله بن عباس أخبره، أن أبا سفيان بن حرب أخبره: أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان

---

(1) سورة: الأنعام، الآية رقم (153).

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، 1/ 80.

رسول الله ﷺ مادَّ فيها ابا سفيان وكفار قريش[1]، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال:

كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: **فهل** قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

قال: **فهل** كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: **فأشراف** الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: **أيزيدون** أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: **فهل** يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

قال: **فهل** كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: **فهل** يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: **فهل** قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: **ماذا يأمركم**؟ قلت: يقول: **اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.**

فقال للترجمان: قل له:

سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله.

---

(1) أي إنَّ تاريخ هذا الحدث في مدة صلح الحديبية الذي كان في العام السادس من الهجرة بعد غزوة الأحزاب.

وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقلتُ أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف.

فإن كان ما تقول حقّاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: **سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[1]).

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

---

(1) سورة: آل عمران، الآية رقم (64).

وكان ابن الناطور، صاحب إيلياء وهرقل، أسقفاً على نصارى الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء، أصبح يوماً خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مداين ملكك، فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على **أمرهم**، أتيَ هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: أذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه، فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يَرِم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه **يوافق رأي هرقل** على خروج النبي ﷺ، وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال:

يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل.

رواه أبو صالح بن كيسان ويونس بن معمر عن الزهري) [1].

في هذا الحوار بين عظيم الروم هرقل وأبي سفيان من عظماء العرب آنذاك معان كثيرة، من أهمها في هذا الباب، سؤال هرقل: **ماذا يأمركم؟**

أي: ما هي قضيته المعنوية التي يدعو الناس إليها؟

فكان أول أمر أجاب عنه أبو سفيان، إنه يدعونا إلى عبادة الله وحده وألاّ نشرك به شيئاً، والأمر الثاني: اتركوا ما يقول آباؤكم، إي يدعوهم إلى حرية الرأي، وأن لا يقلدوا آباءهم في أقوالهم وآرائهم التي تعبد الأوثان.

والأمر الثالث: الصلاة والصدق والعفاف والصلة، وهذه أخلاق حميدة يدعو إليها أصحاب الرأي الحر والعقلاء كما يدعو إليها الأنبياء.

---

(1) الجامع الصحيح، الإمام البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم (7)، 1/ 4.

وبعد أن سمع هرقل بعقله طَرَفاً معادياً ـ في ذلك الوقت ـ للنبي عليه الصلاة والسلام، خرج بحرية رأي ورأي حر: **فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين.**

وما كان من هرقل إلا أن عرض رأيَهُ الحر على الملأ من قومه من أصحاب المصالح الخاصة والمترفين فقال لهم: **يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟**

وفي هذا العرض حقيقة وهي أن حرية الرأي سمة العقلاء ولو كانوا ملوكاً وعظماء وغير مسلمين، وأنها عدوة لأصحاب المصالح الشخصية الخاصة والمترفين، ولو كانوا من أهل الأديان كما يدعون.

ولكن السؤال المهم هو: كيف عرف هرقل أن الروم لو أسلموا وبايعوا الرسول عليه الصلاة والسلام سيحتفظون بملكهم عندما قال لهم: **يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟**

الجواب: هو أنه فهم من الرسالة النبوية الكريمة، ومن قول النبي عليه الصلاة والسلام: **أسلم تسلم، أي إنَّ** أسلمت في دينك، تسلم في ملكك، ومن قول النبي عليه الصلاة والسلام: **يؤتك الله أجرك مرتين،** أي إنَّ أسلمت يؤتك الله أجر الدنيا في الملك وأجر الآخرة في الثواب، وإن لم تسلم: فإن عليك إثم المستضعفين والفقراء والمساكين من شعبك، فهؤلاء ليسوا من المترفين، الذين خاطبهم هرقل: **يا معشر الروم،** أي الملأ من قومه، فهؤلاء ليسوا أحراراً، لأنهم سجناء شهواتهم الدنيوية الظالمة، وأولياء للشيطان، وعبيداً للدرهم والدينار، بينما المستضعفون من قومه، لا يملكون قرار أنفسهم في ظل استبداد رجال الدين الكنسي عندهم، مما اضطر هرقل نفسه أن يخفي موقفه الحقيقي، ويتراجع عن رأيه الحر، مدعياً أنه يختبرهم، مما يفيد أن استبداد المؤسسة الدينية قد يكون أقوى من إرادة الملك العاقلة الحرة، فتهلك وتهلك غيرها بسبب استبدادها ومقاومتها لحرية الرأي.

الفصل الأول

التأسيس البياني في خلافة آدم وبناء الإنسان الحر

الخلافة الآدمية تبين للإنسان مكانته المعنوية وتبين له دوره في الحياة، وهذا نستنبطه من تساؤل الملائكة عن سر هذا المخلوق الذي استحق الخلافة، أي المخلوق الذي أراد الله تبارك وتعالى أن ينعم عليه بما لم ينعم به على الملائكة من النعم، ومن أهمها نعمة الحرية، فآدم عليه السلام ليس مثل الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فالملائكة فاقدين لحرية القيام بأي فعل لم يؤمروا به، فلا اختيار لهم إلا بالتسبيح والتقديس، كما أخبرنا عنهم المولى عز وجل في قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[2].

هذا ما تعلمه الملائكة عن نفسها، فلما أخبرها المولى عز وجل عن خلق جديد فيه ميزة لا توجد عندها، وكانت هذه الميزة من الخطورة ما فيها، تساءلت الملائكة عن عواقب هذه الميزة، وما سينتج عنها من شر أو من نتائج سيئة، ذكرت الملائكة منها الإفساد في الأرض وسفك الدماء، أي إنَّ الملائكة قاست صفات هذا المخلوق الجديد ـ آدم ـ بصفاتها هي، وهي أنها تفعل ما تؤمر به ولا تعصي أمر ربها إطلاقاً، بينما المخلوق الجديد ـ آدم ـ من الممكن أن يفسد ويسفك الدماء، فقالت في سياق آيات سورة البقرة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[3]، أي إنَّ الملائكة نقدت الاحتمالات السلبية، ولأن النقد لا يوجه إلى الأعمال الإيجابية.

---

(1) سورة: النحل.

(2) سورة: التحريم، الآية رقم (6).

(3) سورة: البقرة، الآية رقم (30).

فكيف توقعت الملائكة هذه النتائج السيئة؟ وليس في الآيات الكريمة من صفات المخلوق الجديد إلا صفة واحدة، وهي أن هذا المخلوق ـ آدم عليه السلام ـ سيكون خليفة، مما يفيد ويرجح أن من معاني كلمة الخلافة في اللغة العربية معنى الحرية، أو أن هذا المعنى من أحق لوازم الخلافة، لأن المستخلف هو حر فيما استخلف فيه، بدليل أن المتوقع من نتائج الحرية الإفساد في الأرض وسفك الدماء، فالحر إما أن يفعل الخير أو الشر، ولا خوف من فعل الخير، ولكن الخوف من فعل الشر، وهو ما تخوفت منه الملائكة، وذلك قبل أن تعلم الملائكة أن الله الرحمن الرحيم سيعلم آدم ما لم يعلم، أي في حالة أن الإنسان لن يكون له رادع داخلي عن فعل القبائح، كما بين ذلك قول الله تبارك وتعالى في الرد على الملائكة: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾، أي إني أعلم ما سيكون عليه هذا المخلوق الحر من صفات وقدرات ومؤهلات، وهي أن نعمة الحرية ستكون مكفولة بقوة معنوية أخرى سيمتلكها الإنسان بنفسه، هذه القوة المعنوية هي قدرته الجسمية على التعلم، فجاء قول الله تعالى معقباً على ذلك بقوله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ ﴾[1].

ففي هذه القصة القرآنية بيان عن مكانة الإنسان في الكون، وبيان عن المكارم التي أنعم الله بها عليه، وهي نعمة الخلافة في الأرض أي نعمة الحرية، ثم نعمة التعليم في الأرض، وكان في تقدير الملائكة: أن الحرية ستؤدي بالإنسان إلى الإفساد وسفك الدماء في الأرض، فأجابها المولى عز وجل إن ميزة هذه الخلافة ليس الحرية فقط وإنما الحرية العالمة، لأن الله تعالى سيجعل من الخليفة في الأرض مخلوقاً قارئاً، أي مخلوقاً متعلماً، وأنه سيعلمه ما لم يعلم، وأن المستخلف ـ آدم وبنيه ـ وإن كان حراً مطلقاً في علمه وعمله، إلا أنه مسؤول عنه في الدنيا والآخرة.

---

(1) سورة: البقرة.

وإلى هذا المعنى أشارت الآية الكريمة من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾، فالأمانة هي الحرية، فلو لم يكن الإنسان متميزاً بالحرية لما كان محتاجاً للهداية أي للعلم الحق، ولو لم يكن متميزاً بالحرية لما كان منصب الخلافة مثيراً لأية مخاوف من الملائكة، ولما كان متميزاً عن غيره من المخلوقات أصلاً.

هذا الأمر ليس حصراً على آدم عليه السلام وحده بل هي نعمة لكل بني آدم، الذين أكرمهم الله بالخطاب والنداء الرباني كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1]، وذلك حتى يجمع الإنسان بين نعمة الحرية ونعمة العلم فلا يضل ولا يشقى، فالحرية تكريم من الله تعالى، والتعليم رحمة من الله تعالى كما في قوله تعالى من سورة الرحمن: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾، فالكرامة الإنسانية مقرونة بالعلم ومشروطة بالعلم الذي أنزله الله تبارك وتعالى على رسله وأنبيائه.

إذاً بالحرية والعلم فضل الله تبارك وتعالى الإنسان على باقي مخلوقاته، فكان بحق مخلوقاً متكاملاً في بدنه وعقله، التكامل البدني في الخلقة وهو يجمع قوانين الكائن الحي الموجود بدقة وتقدير وإتقان في أجهزته الجسمية وأهمها الجهاز العصبي الذي يبني العقل عن طريق أعضاء الحس الخمسة، والتكامل العقلي وهو يجمع في نفسه بين الحرية والتعلم في حقه باختيار ما يتعلم وما يعمل بمفرده، أي حقه في اختيار الثقافة التي يؤمن بها، واختيار القيم التي يثق بها، واختيار السلوك الذي يرغبه، فالحياة البدنية المادية هي أساس بنية الإنسان التي تقام عليها الحياة العقلية المعنوية، المادة الجسمية هي ذات الإنسان، والنفس هي ماهيته، والعقل هو هويته، وقد توجه القرآن الكريم لبناء النفس الإنسانية بأفضل صورة وأحسن تقويم، فقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[2].

فالله سبحانه وتعالى يعلم البشر أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم خِلقة، أي في أحسن بنية جسمية وأجهزة عصبية وغيرها، حتى يتمكن الإنسان من بناء نفسه في أحسن

---

(1) سورة: الأعراف، الآية رقم (35).

(2) سورة: التين، الآية رقم (4).

خُلق، أي في أحسن ماهية معنوية وأفضل هوية عقلية بإرادته واكتسابه المعرفي، على أساس أنه حر في بناء العقل الذي يريد، فلم يفرض الخالق سبحانه وتعالى على الإنسان نوع عقله، حيث إن العقل هو بنية معان [1]، هذه البنية من المعاني يبنيها الإنسان بنفسه في قلبه، في دماغه وجهازه العصبي بحسب بيئته ومجتمعه ولغته ودينه وثقافته وتعلمه.

ولئن كان موقف الملائكة من الخلافة الآدمية استفسارياً ولصالح الإنسان، فإن موقف مخلوق آخر كان استنكارياً وعداوة للإنسان، وهو موقف إبليس الذي اعترض على السجود لآدم، قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾، هذا الموقف من إبليس وكيفية مواجهته والرد عليه سيأتي في الباب التالي الذي يتحدث عن التأسيس الحكمي لحرية الرأي في الإسلام.

إن قصة آدم في القرآن الكريم لم تتوقف على معنى الخلافة والحرية والتعلم، بل أخبر المولى عز وجل آدم وذريته عن مسؤوليتهم عن نعمة الخلقة ونعمة الحرية ونعمة العلم فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، ففي هذه الآيات الكريمة تتقرر حقيقة الحرية الإنسانية في حريتها في اتباع الهداية وحريتها في رفض الهداية وإنكارها واتباع ما تشاء، هذه الحرية هي التي تنتج اسم ووصف الإيمان لمن صدق، وتنتج اسم ووصف الكفر لمن أنكر واستكبر، وقد أكد القرآن الكريم هذه المعاني في مواضع كثيرة من القرآن الكريم مثل السورة التي تحمل اسم الإنسان تكريماً له فقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [2]، فالهداية هي بيان طريق الخير والصراط المستقيم وما فيه صلاح الإنسان في الدنيا والآخرة، والإنسان مخير في اتباع الهدى أو الضلال.

---

(1) حول تعريف العقل: انظر كتاب فهم الإنسان «النظرة المعرفية العربية» تأليف عمران سميح نزال، نشر دار قتيبة للنشر في سورية ودار القراء للنشر في الأردن، الطبعة الثانية 2002م.

(2) سورة: الإنسان.

لقد بينت الآيات أن هناك هدى يأتي من الله العليم الحكيم، والهدى هو الوحي المنزل وهو العلم المنزل، واتباع الهدى ليس مجرد ادِّعاءٍ أو موافقة عامة دون معرفة علمية، وإنما هو تعلم ما أنزله الله تبارك وتعالى من علم على أنبيائه والتصديق به والاطمئنان إليه والعمل بمقتضاه، وبعد أن ختم المولى عز وجل النبوة برسالة محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام، فإن الهدى هو ما أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله في القرآن الكريم وأبانه له في سنته النبوية، أي إنَّ الهدى هو الإيمان بالإسلام والعمل بمقتضاه، والضلال هو الخروج عن هديه وعدم اتباعه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1].

في الإسلام بيان متواصل لمعاني قصة آدم في القرآن الكريم في أكثر من موضع وكذلك في السنة النبوية للتأكيد على معنى الحرية الآدمية، وفيها دليل علاقته مع عدوه اللدود الشيطان الرجيم، وفيها الغاية من هبوطه وزوجه حواء من الجنة، بعد المعصية والتوبة والمغفرة، وفيه أن عودة بني آدم إلى الجنة تتطلب النجاح في امتحان الحرية، وإحسان التصرف بالأمانة، فاتباع الإسلام ليس سلباً للحرية، وإنما نتيجة لاستعمال الحرية في الوجه الصحيح.

إن حرية اختيار الإنسان للحق بنفسه، وحرية عمله للصلاح بإرادته، هو نفع للإنسان في الدنيا أولاً ويثاب عليه في الآخرة ثانياً، وآيات القرآن الكريم كلها تؤكد دور الإنسان في اختيار مصيره وأنه مسؤول عن نفسه، وأنَّه في فرديته وحدة مستقلة الوجود في الدنيا، وحر في حياته المعنوية أي في قراءته ومعرفته وإدراكه وفهمه وعقله وعلمه وتصديقه، والتي إن أحسن استعمالها وصف بمصطلح القرآن الكريم بالمؤمن، فالمؤمن في مصطلح القرآن الكريم هو الإنسان الذي استعمل حقه بالحرية في القراءة والتعلم والتصديق بالعلم الحق الذي يريده ويطمئن إليه ويعمل بمقتضاه.

لقد بين القرآن الكريم في مواضع كثيرة أن الإيمان تصديق بالعلم وليس مجرد ادِّعاءِ الإيمان، فقال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾[2]، لأن الإيمان خطوات معرفية وعلمية حرة، في القراءة ثم في العلم ثم التصديق ثم بالاطمئنان ثم العمل بمقتضاه، ولذا بدأ القرآن الكريم نزوله بالخطوة الإيمانية الأولى

(1) سورة: آل عمران، الآية رقم (19).

(2) سورة: الحجرات، الآية رقم (14).

وهي القراءة الحرة، وكان سعي القرآن الكريم المتواصل لبناء الإنسان الفرد الحر المتعلم المثقف، بهدف إيجاد الإنسان المعرفي.

هذه الخطوات هي أساس فكرة تكوين الإنسان المسلم المؤمن، بالصفة الفردية، فسعى الإسلام إلى تكوين هذا الإنسان المسلم المؤمن هو الضمانة الحقيقية لاستعمال الحرية الآدمية في مكانها الصحيح وضمن ضوابطها الذاتية، وهي ضمانة استعمال الحرية في الخير لا في الشر، وفي عدم اعتداء الإنسان على نفسه ولا على غيره، فالإنسان هو الذي يصل بقراءته إلى بناء عقله، وهو الذي يصل بعقله إلى تكون شخصيته العلمية المستقلة، والتي تأخذ دور التصديق بالحق الذي تعلمته، وتكذيب الباطل الذي تعرفه وترفضه.

فالإيمان في الإسلام هو التصديق بالعلم عن حرية ودون إكراه، بدليل قوله تعالى لرسوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[1]، أي لا تملك نفس أن تصدق بالعلم الحق وهي غير متبعة للهدي الذي أنزله الله تبارك وتعالى على رسله، ولذلك وصف الله من لا يؤمن بفاقد العقل، والعقل بناء معنوي إنساني، أي ناتج عن فعل معنوي بشري في اختيار الحق والإيمان به، وليس مجرد المعرفة به، لأن أحق أنواع العلم التي يصدق بها الإنسان العاقل هو العلم المنزل من الله تبارك وتعالى على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي السنة النبوية بيان وتأكيد على أن الهداية واتِّباع العلم الحق والانتفاع به لا يكون إلا على أساس الحرية الإنسانية ودون إكراه، فقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا ورعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفَعْ بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[2].

---

(1) سورة: يونس.

(2) صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين النووي، كتاب الفضائل، حديث رقم (5912)، 15/ 47. وأخرجه البخاري في كتاب العلم، باب: فضل من تعلم وعلم، رقم (79).

فالنبي عليه الصلاة والسلام نص على أن قبول الهدى من الإنسان نفسه، أي بإرادته وحريته ودون إكراه أو ضغوط من أحد، وشبه الإنسان بالأرض التي تتقبل الماء وتنتفع به، فالإنسان مثل الأرض في قبول الهدى والعلم، فإما أن يكون قابلاً للخير والحياة أو أن يكون مثل الأرض الجدباء التي لا تنتفع بخير، وفي الحديث نص على ربط الهدى بالعلم فمن يصدق بالعلم وينتفع به هو من استعمل حريته في اختيار الخير لنفسه أولاً ولمن يعيش معهم ثانياً.

الإسلام يريد من الإنسان أن يكون قارئاً فاعلاً حراً أولاً، وبعد ذلك يقرر هو بنفسه أن يكون مسلماً ومؤمناً أو لا يكون، وحتى لو دخل الإسلام وراثة، أي عن طريق والديه ومجتمعه، فإن الإسلام يطالبه بالتفكير ومعرفة حقوقه الفردية، وهو ما أكدت عليه أوائل السور المكية مثل سورة المدثر المكية فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1]، فهذه الآية تتضمن أن الإنسان حر، بدليل أنه مسؤول عن كسبه، ولا يكون محاسباً عن كسبه إلا إذا كان حراً في فعله له، وقال تعالى في نفس السورة:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾[3].

إن تركيز القرآن الكريم على بناء الإنسان المسلم المؤمن كبير جداً، لأن بناء الإنسان هو أساس كل بناء اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي، أسري أو قبلي أو وطني أو قومي أو دولي، أما ضمانة ثبات الإنسان المسلم على إيمانه وصدقه وعمله الصالح فهو رغبته بالخلق الحسن في الدنيا ونوال رضوان الله وجنته في الآخرة، فالأخلاق الفردية عامل قوة في الثبات على الحق والثبات عليه بقناعة خالصة مهما كانت الصعاب.

---

(1) سورة: المدثر، الآية رقم (38).

(2) سورة: المدثر.

(3) سورة: الليل.

ولذلك خاطب القرآن الكريم المسلم المؤمن بالصيغة الفردية في مواضع كثيرة منها: قول الله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى من سورة القصص المكية: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[4].

إن الملاحظ على هذه الآيات الكريمة أنها كلها آيات مكية، أي إنَّ مهمة القرآن المكي أن يبني الإنسان المسلم المؤمن في شخصية إسلامية مستقلة، فهذه الآيات تبني الإنسان وهو فرد ومتعلم وحر، حتى يكون قادراً على القيام على نفسه بما يصلحها، وأن الأولوية في البناء هي للفرد من حيث المستويات الوجودية الثلاثة، الفردية والاجتماعية والسياسية، فالبناء القوي هو الذي يؤسس على الإنسان الحر المتعلم، حتى تكون مواقفه المعنوية العقلية والإيمانية بقناعة شخصية منه، وليس تحت تأثير أحد ولا إكراه من أحد، سواء كان بالتصديق أو بالتكذيب، أي على أساس الحرية الحقيقية للإنسان، والقناعة العقلية الذاتية مباشرة، فلا تقليد في قبول الإسلام والإيمان به، بل لا بد أن يجدد المسلم تصديقه العقلي بالإسلام عند البلوغ الجسدي، وان يكون فاعلاً في قراءته ومعارفه وعقله وعلمه وتصديقه وإيمانه وعمله، وحتى يكون احترامه للقانون عن علم وقناعة في الحياة الفردية قبل احترامه للقانون الاجتماعي والدستور السياسي.

وهذا ما يجب على الفكر الإسلامي أن يحافظ عليه ويدعو إليه بشدة، وأن يتجنب الفكر الذي يريد من الإنسان أن يكون مقلداً أو تابعاً للآخرين من غير حرية ولا قرار منه، فالخلافة الآدمية تبين للإنسان مكانته المعنوية في الوجود، وتبين له دوره في الحياة الإنسانية، وتبين له مساهمته في بناء الحياة الاجتماعية، وحتى يكون قادراً على المساهمة في

---

(1) سورة: طه، الآية رقم (82).

(2) سورة: القصص، الآية رقم (67).

(3) سورة: القصص، الآية رقم (80).

(4) سورة: الكهف، الآية رقم (88).

بناء المجتمع المدني على معرفة وعلم واحترام، ودور العلم المنزل أن يرسم للإنسان المسلم المؤمن خارطة الطريق وتبين له مسؤوليَّتَهُ، ولا تصادر منه حريته ولا تلغي إرادته ولا تبطل استقلاله.

هذا الإنسان المعرفي يهدف الإسلام إلى جعله يبني نفسه بنفسه، فلا يمنعه من قول ما يعتقد بصوابه، بل يحثه على حرية الرأي في صور كثيرة منها النصيحة والتوصية والحوار الشوري والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، الإسلام طالب المسلم المؤمن القيام بكل هذه الواجبات ولا تتم واحدة منها إلا بإطلاق حرية الرأي، وجعلها عبادة يتقرب المسلم بها إلى الله تعالى رغبة بالثواب ونوال الرضوان، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية واضحة البيان بذلك، وبكل المناهج المعرفية القرآنية التي سبق بيانها.

الصورة المثلى للإنسان المستخلف في الأرض أن يكون مسلم الوجه لله تعالى، مصدِّقاً بالعلم المنزل على رسوله، متبعاً للهدي النبوي القيم، عابداً لله تعالى عبادة علمية وعملية معاً، أي لا يأتي عبادة إلا على معرفة وعلم وبينة بمشروعيتها وكيفيتها ومقاصدها، سواء باجتهاده الخاص وهو الأولى، أو باجتهاد أولي الأمر من العلماء الصادقين، حافظاً للأمانة المادية والمعنوية، مؤدياً لحقوق الآخرين كاملة قدر استطاعته، ومن أهمها ما يؤدى بالقول الصادق والرأي الحسن والنصيحة المخلصة، فهذه وغيرها تدخل من باب حرية الرأي بالمفهوم الشرعي الإسلامي.

ومن الأحاديث النبوية التي تحث المسلم على حرية الرأي بالمفهوم الإسلامي، ما جاء في صحيح مسلم قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة. حدثنا عبدالله بن نمير وأبو أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن جرير؛ قال: **(بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)**[1].

إن النصح كلمة حق يقولها المسلم لأخيه عن طريق حرية الرأي يثاب عليها، وقد قرنها الرسول عليه الصلاة والسلام مع الصلاة والزكاة تبياناً لأهميتها وتعظيماً لحرية الرأي الصادقة التي تنفع المسلمين.

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، الحديث (197)، 1/ 228. وأخرجه البخاري، كتاب الإيمان الحديث (57).

وقال الإمام مسلم في صحيحه: (حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة. حدثنا وكيع بن سفيان. ح وحدثنا محمد بن المثنى. حدثنا محمد بن جعفر. حدثنا شعبة كلاهما عن لقيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب. وهذا حديث أبي بكر. قال: أول من بدأ بالخطبة، يوم العيد قبل الصلاة، مروان. فقام إليه رجل. فقال: الصلاة قبل الخطبة. فقال: قد ترك ما هنالك. فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه. سمعت رسول الله ﷺ يقول «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. ومن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان**»)[1].

وهذا الحديث النبوي الشريف فضلاً عن أَنَّهُ يبين أنواع السلطات الشرعية في الإسلام عن طريق تقسيم أنواع الأمر بالمعروف، إما بالقوة المادية لصاحب الولاية الشرعية، أو بالقوة المعنوية والتي يدخل منها حرية الرأي والتي هي لصاحب الولاية العلمية، وإما بعدم الموافقة القلبية للمنكر، فإن الحديث يجعل حرية الرأي واجباً شرعياً يثاب المسلم على فعله ويؤثم على تركه، وهذا دليل شرعي على حق المسلم بالمشاركة في أمور المسلمين وبالأخص ما يحميهم من المنكرات ويبعد عنهم المفاسد.

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، الحديث (175)، 1/ 211. وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، الحديث (1140). وأخرجه الترمذي، كتاب الفتن، الحديث (2172). وأخرجه ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، الحديث (1275).

الفصل الثاني

التأسيس البياني في خلافة الأمة وبناء المجتمع المدني

يبني الإسلامُ الإنسان ـ وهو فرد ـ قوة معنوية حرة عاقلة عالمة في المرحلة الأساسية مكوناً إنساناً معرفياً، وفي نفس الوقت يجعل من بنائهِ الأساسي الفردي قوة في بناء المجتمع الذي ينتمي إليه مادياً ومعنوياً، فيجمع القوتين الفردية والاجتماعية في محصلة واحدة فاعلة وقويمة دون تعارض ولا طغيان، فهو يخلق في الإنسان حريته منذ ولادته، كما بينه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

لقد تحدث القرآن الكريم عن الاستخلاف الجماعي الفطري الطبيعي، وهو عندما يخلف الناس بعضهم بعضاً، فيخلف الأبناء والأحفاد الآباء والأجداد، أي تخلف الأجيال الحية الأجيال الميتة في الأحوال الطبيعية، وكذلك تحدث عن الخلافة المعنوية والتي هي في حقيقتها الأصل في معنى الخلافة في الأرض، فليست الخلافة الجسدية غاية وإنما وسيلة وأداة تقوم عليها وبها الخلافة المعنوية، وقد بينا أن من معاني الخلافة التجديد والجديد، فالأمة التي تخلف أخرى هي أمة جديدة بالنسبة لمن قبلها وذاتها وآخرها المعاصر، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾[1].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾[3]، فالخلائف ليست

---

(1) سورة: فاطر، الآية رقم (39).

(2) سورة: يونس.

(3) سورة: الأنعام، الآية رقم (165).

الأجيال البشرية التي يعقب بعضها بعضاً في التكاثر والحياة والموت فقط، وإنما التي يعقب بعضها بعضاً في المعارف والعقول والعلوم والاكتشافات والصناعات وغيرها، وفي المواقف المعرفية والمعنوية من الخالق سبحانه وتعالى، ومن الكون والحياة.

إن القرآن الكريم يحدثنا عن خلافة الأمم لبعضها بعضاً، وأن أجلها مثل آجال آحاد البشر، فلكل أمة أجل، فإذا جاء أجلها هرمت وماتت، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[2].

هذه خلافة الأمم، وميزتها أنها خلافة جماعية، أي خلافة مجتمعات إنسانية، هي في حالة ابتلاء من الله بالصفة الجماعية، كما يكون أفراد الناس، وتكون نجاتهم أو هلاكهم بالصفة الجماعية أيضاً، كما قال تعالى:

﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِف مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[4]، فهذا الاستخلاف هو استخلاف جماعي، وجاء بصيغة الجمع اللغوية، ومسؤوليته عن نفسه ومستقبله جماعي أيضاً.

ولذا لا يكون المجتمع الإنساني مستخلفاً من الله تعالى إلا على أساس الحرية الجماعية، فلا استخلاف من غير حرية بإطلاق، ولا استخلاف من غير مساءلة من المستخلِف، ولذا فإن الإسلام يدعو إلى حرية المجتمع الإنساني ويدافع عنها ضد أي اعتداء، ويؤسس لها بيانياً قبل أن يؤسس لها حكمياً، أي يبين للأمم ما فيه فلاحها ونجاحها في الدنيا قبل الآخرة، وما تجدد بعثة الأنبياء والرسل إلا من أجل تجديد الحرية

---

(1) سورة: الأعراف، الآية رقم (34).

(2) سورة: يونس، الآية رقم (49).

(3) سورة: الأعراف، الآية رقم (129).

(4) سورة: الأنعام، الآية رقم (133).

الإنسانية الفردية أولاً، وتجديد الحرية الإنسانية الاجتماعية ثانياً، فالأنبياء والرسل لا يرسلون إلى الأفراد فقط، وإنما إلى الأقوام والأمم.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ... وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

ولا تتوقف الحرية الاجتماعية على تأمين حرية الأفراد الذين شكلوا الجماعة والمجتمع، وإنما بالحفاظ على حرية المؤسسات المكونة للحياة الاجتماعية، أفراداً وأزواجاً وذوي قربى، ذكوراً وإناثاً، رجالاً ونساءً، عمالاً وأصحاب عمل، طلاباً ومعلمين، أغنياء وفقراء، ومن كل فئات المجتمع، على أساس المساواة بين الجميع، وعلى هذا الأساس بين الإسلام حقوق وواجبات كل أفراد المجتمع ومؤسساته، وجعل لها ضمانة قانونية للحفاظ على حريتها.

إن التأسيس البياني هو تعليم المجتمع كله بأحكام الإسلام، والعلم بالشريعة الواحدة الموحدة للمجتمع هي القاسم المشترك الذي يؤمن لأفراد المجتمع ومؤسساته حقوقه الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، مادياً ومعنوياً، فإذا كان بناء المجتمع على أساس معرفي وعقلي وعلمي فإنه يدعوهم إلى الحفاظ على القيم المكونة للمجتمع، سواء كانت قيماً مادية أو معنوية، بل يفرض حمايتها من كل ظلم أو اعتداء، حتى لو كانت من أهله أو من غيرهم، فالإسلام يقيم المجتمع على القيم التي تحفظه وتزيد في قوته وقوة أفراده المادية والعقلية والعلمية معاً، وقد بين القرآن الكريم ذلك بالمنهج المعرفي الاعتباري، كما في الآيات السابقة عن قوم نوح وعاد وثمود وصالح وموسى عليهم السلام.

---

(1) سورة: هود.

لم يستعمل القرآن الكريم كلمة المجتمع بالمعنى الاصطلاحي العصري ولم يتجاهله، لأنه استعمل كلمة الأمة التي تحمل معنى المجتمع وتزيد عليه، ففي تعبير القرآن الكريم الأمة هي الجماعة التي لها قيم مشتركة، أي المجتمع في تعبير العصر، وهو الذي يقوم على تجمع بشري وثقافة عقلية وعلمية خاصة بهم، وقد جاءت معظم الآيات التي تتحدث عن مفهوم الأمة في الإسلام في السور المكية المتأخرة والتي نصفها زمنياً بالمرحلة اليثربية كما سيأتي، ودلالة ذلك أن مصطلح الأمة في القرآن والسنة ليس مصطلحاً سياسياً مدنياً فقط، بل هو في الأصل مفهوم اجتماعي وقبل قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وأن وجوده هو مرحلة أساسية في بناء الحياة المستقيمة والسليمة للناس كافة، فهو بالدرجة الأولى إرادة مشتركة لعدد كبير من الناس لها عقلية متوافقة وقيم متناغمة.

وفي التصور الإسلامي فإن تكوين المجتمع المسلم أو الأمة المسلمة بتعبير القرآن هو الضمانة الحقيقية لإقامة الحياة الإسلامية القومية سواء في عهد النبوة أو بعدها، فلم تؤسس الحياة الإسلامية في المدينة المنورة إلا بعد تشكيل مفهوم الأمة المسلمة في أواخر العهد المكي أو في العهد اليثربي بالتحديد، ذلك أن مفهوم الأمة يمثل إرادة كل المسلمين والمؤمنين، فهو في المفهوم الاجتماعي الإسلامي ينوب عن أفراد المسلمين وجماعاتهم، أي ينوب عن المسلمين كافة، ولذلك لا يمكن هدمه أو إلغاؤه حتى لو تم هدم الدولة الإسلامية في يوم من الأيام.

وهذا يعني أن مرحلة تشكيل الأمة هي مرحلة مهمة، ولذلك كانت مرحلة وسيطة بين تشكيل الفرد وتشكيل المدينة بالمفهوم السياسي أي الدولة، وعمدة تشكيل الأمة وشرعيتها أن تقوم على حرية أفرادها وعقلهم الكلي وعلمهم الذي يؤمنون به، فهو الذي يشكل بمجموعه حرية الأمة وعقلها وعلمها، فقال تعالى في سورة الأعراف المكية: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾، وقال تعالى في سورة يونس المكية: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾، وقال تعالى في سورة النحل المكية: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ

أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾، وقال تعالى في سورة الأنبياء المكية: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾، وقال تعالى في سورة المؤمنون المكية: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

والنبي عليه الصلاة والسلام عندما كان يبني ذلك الإنسان منذ بداية العهد المكي كان يؤسس اللبنات الأساسية اللازمة لبناء تجمع بشري مثقف واع، فقال عليه الصلاة والسلام وهو يحث على تراحم مجتمع المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم كما جاء في صحيح مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو عامر الأشعري. قالا: حدثنا عبدالله بن إدريس وأبو أسامة. ح وحدثنا محمد بن العلاء، أبو كريب. حدثنا ابن المبارك وابن إدريس وأبو أسامة. كلهم عن بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى. قال: قال رسول الله ﷺ «**المؤمن للمؤمن كالبنيان. يشد بعضه بعضاً**».

ـ حدثنا محمد بن عبدالله بن نمير. حدثنا أبي. حدثنا زكرياء عن الشعبي، عن النعمان بن بشير. قال: قال رسول الله ﷺ «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد. إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

ـ حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو سعيد الأشج. قالا: حدثنا وكيع عن الأعمش، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ «**المؤمنون كرجل واحد**. إن اشتكى رأسه، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

ـ حدثني محمد بن عبدالله بن نمير. حدثنا حميد بن عبدالرحمن عن الأعمش، عن خيثمة، عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ «**المسلمون كرجل واحد**. إن اشتكى عينه، اشتكى كله. وإن اشتكى رأسه، اشتكى كله»[1].

في هذه الأحاديث النبوية الشريفة يثبت حرص النبي عليه الصلاة والسلام على بناء المجتمع القوي المتين، حرصاً منه على أن ينشر بين المؤمنين الوعي الاجتماعي، والحس

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الأدب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، 8/ 355.

التعاوني بين أبناء المجتمع، فالرسول عليه الصلاة والسلام وهو يؤسس للفردية الحرة المتعلمة لا ينسى الوعي الاجتماعي، لأنه ما لم يتم إعداد الإنسان الفرد المسلم المؤمن بالعلم فلن يستطيع بناء التجمع البشري السليم، فالتجمع البشري ليس مجموعة من الأفراد المتناثرين بأجسادهم والمتباينين بعقولهم، وإنما هو بناء من الكائنات البشرية المتشابه في بنيتها الجسدية لأنها مخلوقة من نفس واحدة، وسلامتها تقوم على تعاونها المعيشي وتحسينه واحترامها لبعضها بعضاً وعدم الاعتداء، وهذا لن يتم حتى تكون هذه المخلوقات البشرية مكتسبة للمعرفة والعلم والثقافة التي تهديها إلى الطريق المستقيم وترشدها إلى العمل الصالح، وان تكون ملتزمة بقانون عام يحتكم إليه الجميع أو الغالبية منهم بالرضا والقبول، وهذا ما نسميه بالتأسيس البياني للمجتمع.

إن ما سعت الشرائع الدينية إلى تقديمه للناس هو القانون العام الذي ينظم علومهم وأعمالهم على أساس الرحمة بالناس، وأن تجمع بينهم على أساس الأخوة والمساواة، وأن تحكم الاختلاف بينهم على أساس العدل، فالتجمع البشري لا يمكن أن يوجد دون اختلاف وتراحم بين الناس مهما بلغ أفراده من المعرفة والعقل والعلم والثقافة، إذ يبقى بين الناس من يستغني عن القراءة والعلم فيطغى على الآخرين من الناس، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ...﴾[2].

إن إرسال الأنبياء والرسل وإنزال الكتب كان هدفه هداية الناس للتي هي أقوم، كما قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[4].

والهداية الفردية والاجتماعية ليست سلباً للحرية، ولكن إنزال القرآن الكريم وبعثة الرسل لا تعني زوال الشر من الأرض، لأن ذلك يتوقف على موقف الناس من الهدي

---

(1) سورة: العلق.

(2) سورة: هود.

(3) سورة: البقرة، الآية رقم (53).

(4) سورة: الإسراء، الآية رقم (9).

المنزل والهدي المبين، فهو يسعى لجعل كل الناس ملتزمين بالعلم الصادق والشرائع العادلة والأعمال الصالحة، ولكن الواقع يقول إن من الناس المسلم والمجرم، ومنهم المهتدي والضال، ومنهم المصلح والمفسد، ومنهم المتقي والفاسق، أي الملتزم بالقانون والخارج عنه، ومن هنا كانت الحاجة إلى وازع حقيقي للالتزام بالقانون أو الشريعة العامة، في ظل كائنات بشرية حرة بمبدأ الخلافة الآدمية.

الوازع الأول كما سبق بيانه هو الخلق الفردي، على أساس التزكية الفردية فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾[2]، والتزكية في هذه الآيات هي الخلق الحسن، أي من كان مع غيره على خلق حسن، فالخلق الحسن أساس التربية، وهو أشبه بالشريعة الخاصة، ومن هنا كان اهتمام الإسلام كبيراً بالأخلاق الفردية لأبناء المجتمع المسلم، وكان وصف القرآن الكريم للصورة النبوية في السورة الثانية في تاريخ نزول سور القرآن الكريم وصفاً متميزاً، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3]، وجاء قول الرسول عليه الصلاة والسلام: **(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)**[4]، ذلك أنه لا يمكن أن يكون القانون العام أو الشريعة الدينية أو الدستور مطاعاً إذا لم يتقبل بالقناعة العقلية والتصديق بالعلم إيمانياً والخلق الحسن من قبل الأفراد أولاً، أي ما لم يكن صادراً عن إرادة صادقة وحرية تامة ودون إكراه، وإلا كان ادّعاءُ التصديق نفاقاً وليس إيماناً، وإلا كان الفعل خداعاً وليس عملاً صالحاً، ومن هنا كان لا بد من علم مشترك تؤمن به الجماعة من خلال إيمان أفرادها، وهذا ضابط علمي تجمع عليه الجماعة البشرية التي تقطن وطناً واحداً، بحيث يكون علمها المشترك هو عقلها الكلي الذي تفكر به، ويكون الإيمان المشترك هو دستورها العام، ولكن دون إلغاء مبدأ الخلافة الآدمية في الحرية والعلم، والسنة النبوية خير قدوة، والسيرة النبوية خير مثال.

---

(1) سورة: الشمس.

(2) سورة: الأعلى، الآية رقم (14).

(3) سورة: القلم، الآية رقم (4).

(4) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1990م، كتاب الإيمان، 1/ 43.

بدأت الدعوة الإسلامية بالمقربين من الأفراد من النبي عليه الصلاة والسلام، الزوجة والصاحب والعم وابن العم والمولى والجار وهكذا، ثم أنذر قومه حتى تكون دعوته قريبة من كل قلب خاشع فيتذكر بها ويستجيب لها، فلما أنكر عليه قومه دعوته توجه إلى الوفود التي تقدم مكة للحج أو التجارة، وكان من توفيق الله تبارك وتعالى أن التقى النبي عليه الصلاة والسلام مع نفر من أهل يثرب التي سيصبح اسمها بعد ثلاث سنوات المدينة المنورة، في هذه السنوات الثلاث رسم القرآن الكريم أسس الحياة الاجتماعية السليمة، بحسب ما تشير إليه السور التي نزلت في هذه المرحلة الزمنية، وهي المرحلة التي وجد فيها علاقة بين النبي عليه الصلاة والسلام والصالحين من أهل يثرب، ومن هذه السور: النمل والقصص والإسراء ويونس وهود ويوسف والحجر والأنعام ولقمان وسبأ الزمر وغافر والحواميم والكهف والنحل والروم والعنكبوت وغيرها[1].

في هذه المرحلة الوسيطة بين المرحلة المكية والمرحلة المدنية توجه اهتمام النبي عليه الصلاة والسلام إلى بناء المجتمع المدني الإسلامي القادم، كان النبي عليه الصلاة والسلام يقيم في مكة، وكان بناء المجتمع المسلم في يثرب، سواء بعد اللقاء الأول مع ستة نفر من أهل يثرب، واللقاء الثاني والاتفاق على بيعة العقبة الأولى التي وصِفَتْ ببيعة النساء، واللقاء الثالث والاتفاق على بيعة العقبة الثانية التي وصفت ببيعة الحرب، وذلك قبل الهجرة النبوية الكريمة.

لقد أسس الرسول عليه الصلاة والسلام دعوته الاجتماعية على حرية الرأي، تروي لنا كتب السيرة النبوية الكريمة قصة اللقاء الأول مع أهل يثرب، قال ابن إسحاق: (فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ وإنجاز موعده له خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم:

---

(1) انظر: علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، الدكتور أحمد شكري وعمران سميح نزال، منشورات: جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، الطبعة الأولى، 1426هـ ـ 2002م، ص 79.

{ **من أنتم** } ؟ قالوا نفر من الخزرج. قال: { **أمن موالي يهود** } ؟

قالوا: نعم. قال: { **أفلا تجلسون أكلمكم** } ؟

قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام **وتلا عليهم القرآن**، قال وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء، قالوا لهم: إن نبيّاً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا...

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ)[1].

فبعد أن تعرف عليهم النبي عليه الصلاة والسلام، عرض عليهم القرآن بأدب وخلق وحكمة وحرية رأي، فقال لهم: { **أفلا تجلسون أكلمكم** } ؟

فأي حرية رأي بعد ذلك، أن لا يطلب منهم إلا أن يجلسوا ويسمعوا، ولهم حق الجواب كيفما أرادوا واقتنعوا، ونحن نصف هذه المرحلة التي بدأت باللقاء السابق مع أهل يثرب نصفها بالمرحلة اليثربية، بسبب أن البناء الاجتماعي كان في يثرب، أي إنَّ الإصلاح توجه إلى التربية الجماعية التي تشمل الأفراد والأسر والأطفال والرجال والنساء والعلاقات الاجتماعية بينهم، ولذا جاء وصف المجتمع بالمجتمع اليثربي المدني لأنه يثربي المكان ومدني العلاقات والأحكام، وقد كان قيد التشكل والتحول من يثرب الجاهلية إلى يثرب الإسلامية، وبعد اكتمال هذا التحول تغيَّرَ اسم يثرب إلى الاسم

---

(1) ابن هشام: السيرة النبوية 2 / 430.

السياسي الجديد وهو المدينة، بعد أن تتوج هذا التحول بالهجرة النبوية الشريفة، كما في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

إن هذا يعني أن التربية الاجتماعية بدأت في يثرب جغرافياً وكانت تهدف إلى تشكيل الأمة المسلمة، والتي بدورها تخطط بكافة قواها الاجتماعية الفاعلة إلى تأسيس المدينة الإسلامية المنشودة، فهي مرحلة زمنية بعد المرحلة المكية التي اهتمت ببناء الفرد المسلم المؤمن الصادق، وهي قبل مرحلة المدينة المنورة والدولة الإسلامية المتكاملة، ودواعي وصفها بالمرحلة اليثربية عمل إجرائي لتمييز هذه المرحلة الزمنية عن غيرها من المراحل، أي حتى لا تختلط بما قبلها ولا ما بعدها كما حصل في التاريخ الإسلامي، فهذه المرحلة لم تسلط عليها الأضواء من علماء السيرة والمؤرخين ولا في كتب علوم القرآن الكريم، فكل أحداث الهجرة في كتب السيرة تحصر في بيعة العقبة الأولى والثانية بصورة مقتضبة، دون تحليل لمراحلها ولا تفسير لمعانيها، ولم يدرس العلماء التخطيط القرآني لهذه المرحلة الزمنية، وكيف تم مطابقة ما نزل من القرآن الكريم مع السيرة النبوية، وكيف تم تنفيذه في السنة النبوية وأعمال الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يتم الحديث عن القوى الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت مؤثرة في مجريات الأحداث في تلك المرحلة، وكيف تم تفعيل التعددية الجديدة من المهاجرين المكيين ومن الأوس ومن الخزرج ومن أسلم من يهود يثرب وغيرهم، وكيف تمكنوا جميعاً من توحيد جهودهم في معالجة مشاكلهم، والتغلب عليها فكرياً وعقلياً وعملياً، لقد أدى ذلك إلى ضعف الاهتمام بالبعد الاجتماعي في فكر الدعوة الإسلامية المتكاملة، بالرغم من كونه النموذج الإسلامي الأول الذي يبني مجتمعاً مدنياً، وهو في مرحلة الإعداد لبناء كيان اجتماعي وسياسي إسلامي متميز، فهذه الأمة الاجتماعية هي التي انبثقت عنها الأمة السياسية الحاكمة في المدينة المنورة، وأكد ذلك النبي عليه الصلاة والسلام في إعلانها أمة واحدة من دون الناس، كما سيأتي في دستور أو وثيقة أو وديعة المدينة المنورة.

في هذه المرحلة اليثربية نزلت سور قرآنية كثيرة وهي من أواخر سور العهد المكي، قد ذكرنا بعضاً منها حول مفهوم ولادة مصطلح الأمة الاجتماعي، هذه السور كانت تعالج قضايا تلك المرحلة وجلها قضايا اجتماعية، فكانت توجه عناية الإنسان المسلم المؤمن إلى أنه يعيش في مجتمع، وانه ليس كياناً فردياً فقط وإنما كيان اجتماعي، فالإنسان في

حياته الخاصة فرد مستقل ولكنه في الحياة العامة مجتمع متكامل، فالإنسان ينتمي إلى المجتمع كما ينتمي إلى أسرته وعائلته، وفي هذا التوجه يصبح للمجتمع حقوق وعليه واجبات، أي إنَّ المجتمع شخصية اعتبارية، وهذا تطلب ثقافة اجتماعية تبين الحقوق والواجبات، لقد اهتم الإسلام بتقديم هذه الثقافة الاجتماعية في أواخر العهد المكي، وبالأخص بعد الاتصال بأهل يثرب، وقد تبين ذلك في السيرة النبوية العملية، وبالأخص في نصوص بيعة العقبة الأولى والثانية وما قام به الصحابي المعلم مصعب بن عمير رضي الله عنه في يثرب قبل الهجرة النبوية إليها.

ولعل من أوائل السور المكية التي اهتمت بالجانب الاجتماعي السورة التي تحمل اسم امرأة يحترمها كل البشر وهي مريم العذراء، في هذه السورة بيان عن العلاقات العائلية الاجتماعية، وهي على التوالي بين الأب وابنه كما في قصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، والأم وابنها كما في قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، والأب وابنه مع إبراهيم ﷺ وأبيه، والأخ وأخيه في قصة موسى وأخيه هارون عليهما السلام، والزوج والزوجة كما في إسماعيل ﷺ وأهله.

الاجتماع البشري لا يقوم على تكوين العائلة والزواج فقط، وإنما يقوم على كافة العلاقات التي يشارك بها الناس، والمجتمع يقوم على العلاقات التي تجمع بين أفراده في علاقات حرة عالمة، ومنها العلاقات المالية والاقتصادية والثقافية والرياضية والعمالية وغيرها، بحيث تحقق للناس النفع والمصالح المتبادلة، وذلك بالاهتمام بالمستوى الاقتصادي للناس، والاهتمام بالعدالة الاجتماعية بين الناس، وذلك بان يكون كل مواطن مشاركاً في الشؤون العامة، سواء كانت فكرية أو عمرانية أو إنشائية أو اجتماعية أو سياسية أو غيرها، وأن تتعزز المواطنة من الجميع، على أساس احترام شخصية المواطن، حتى يساهم في البناء والمشاركة في التنمية في كل مجالاتها، إن احترام المواطن يتطلب السماح لكل مواطن المشاركة في القضايا العامة وبالأخص التي تخصه، مثل أخذ رأيه في فتح مدرسة في الحي الذي يسكن فيه، أو إقامة حديقة أو مصنع أو مؤسسة رسمية أو تجارية أو غيرها، بغض النظر عن مستواه الاجتماعي إن كان فقيراً أو غنياً، رجلاً أو امرأة، متعلماً أو غير متعلم.

في هذا المجتمع تتحول الحرية الفردية إلى حرية مشاركة في إدارة شؤون المجتمع بالشورى العلمية كما أمر الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]، من المهم الإشارة إلى أن هذه الآية مكية بحكم تاريخ نزول سورة الشورى في مكة المكرمة، والشورى العلمية هي حرية رأي جماعية كما سبق بيانه، وهدف الشورى في الآيات المكية أن تصنع الوعي العام، من خلال التشاور الفكري والعلمي بين مجموعات من المسلمين، تقوم بالتخطيط المشترك للحياة الاجتماعية الطاهرة كما هي في سورة مريم، فالحرية الاجتماعية هي حرية كل إنسان مسلم مؤمن في إدارة شؤون مجتمعه، وبقدر مشاركته بحرية ينفع مجتمعه، أي إنَّ الحرية الاجتماعية وعي مشترك على قضايا المجتمع، هذا الوعي من قبل الأفراد ليس فردياً وليس خاصاً بل وعياً مشتركاً يمكن تسميته **بالوعي الاجتماعي**، وسمته الأساسية أنه يمارس حريته بالحفاظ على ذاته ومجتمعه، الوعي الاجتماعي قد يفرض على المواطن القيام بأدوار على أساس المساواة ضمن خصوصيات كل شخص بما يستطيع القيام به، على أساس المساواة في الحقوق أولاً، والعدالة الاجتماعية على أساس تكافؤ الفرص ثانياً، ومن يثبت نجاحه وجدارته في العمل، يكون مقدماً على غيره في القيادة الاجتماعية.

كان اللقاء الأول بين النبي عليه الصلاة والسلام وستة نفر من أهل يثرب في العام العاشر من البعثة[2]، وقد أسلموا ولما عادوا إلى يثرب: «دعوا قومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، **فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله ﷺ**»[3]، وهذا يعني أن الناس قد أسسوا مجتمعهم المدني في يثرب قبل الهجرة النبوية الكريمة، أي قبل تأسيس الدولة المدنية، لأن النفر الستة هم من دعوا قومهم إلى قيم الإسلام المدنية، أي إيجاد مجتمع يتفاعل مع القيم التي يتعلمها وينظم حياته الخاصة والعامة على أساسها بإرادته واختياره.

---

(1) سورة: الشورى، الآية رقم (38).

(2) السيرة النبوية الصحيحة، الدكتور أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1412هـ ـ 1992م، ج1/ ص 194، وعزاه لمسند أحمد 3/ 322، وفتح الباري لابن حجر 7/ 222، وحسنه، ومستدرك الحاكم 2/ 625، وأقره الذهبي.

(3) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: سيد بن رجب، دار ابن رجب، المنصورة، 1423هـ ـ 2003م، 2/ 273.

وأن تفاعل الناس مع دعوة النفر الستة هي التي مهدت لبيعة العقبة الأولى والتي وصفت ببيعة النساء، بسبب بنودها الاجتماعية، أي إنَّ التفاعل قد ازداد على أساس مشاركة كل الناس وليس قلة منهم فقط، وهذا لا يكون إلا على أساس تفعيل التعددية الفردية، وجعلهم مشاركين في بناء المجتمع المدني الجديد وليس منفعلين فقط، حتى إذا كان العام المقبل ـ أي الحادي عشر للبعثة ـ وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب [1].

لقد كانت البيعة الأولى تواصلاً في التفاعل تم بناؤه على جهود الستة نفر، فلما جاءت البيعة الاجتماعية أرادت صناعة ثقافة اجتماعية مشتركة، فكانت البيعة بمعنى العقد الاجتماعي الذي يؤمن به الجميع ويعملون به، لأن المشاركة العلمية والعمليّة في الجهد الجماعي هو الطريق الصحيح للبناء الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي الصحيح، على أساس معرفة كل فرد مسلم حقوقه في المجتمع المدني الجديد، بقدر ما يعرف بنود العقد الذي يؤمن به، سواء جاءت بنص قرآني أو سنة نبوية أو اجتهاد شرعي للقيادة الاجتماعية، وكانت بنود بيعة العقبة الأولى بيعة النساء تدل كما رواها عبادة بن الصامت على أنها بيعة على تشكيل المجتمع المسلم قبل قيام الدولة الإسلامية، وسوف نذكرها في فصل التأسيس الحكمي لحرية الرأي الاجتماعي.

لم تنتقل مرحلة الدعوة النبوية مباشرة إلى مرحلة الدولة بمجرد وجود أنصار للدعوة، وإنما بإيجاد المجتمع الذي يؤمن بالدعوة ويحميها ويضحي من أجلها، لقد انتقلت مرحلة الدعوة الفكرية إلى مرحلة المجتمع المدني الذي يقرر بإرادته وتحمله لمسؤولياته أن يأتي بالنبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلى يثرب، مهما كلفته الأمور من واجبات وتضحيات.

لقد أسس المؤمنون من الأوس والخزرج مجتمعهم اليثربي المسلم بعد بيعة العقبة الأولى، وقبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليهم، وكان طلبهم من النبي عليه الصلاة والسلام أن يرسل معهم مصعب بن عمير من أجل أن يعلم أهل يثرب القرآن الكريم ويفقههم أمور دينهم، من أجل صناعة القناعات الاجتماعية والمدنية وليس صناعة

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: سيد بن رجب، دار ابن رجب، المنصورة، 1423هـ ـ 2003م، 2/ 273.

القناعات الفردية فقط كما حصل في مكة، ولأن القيادات الفردية كانت قد أسلمت في العقبة الأولى وقبلها، ولكنها تحتاج إلى من يعلم الناس قيم هذا الدين، ويعلمهم قوانين الحياة الاجتماعية الجديدة، ويصنع الوعي الاجتماعي.

العدالة الاجتماعية لا تتحقق ما لم تتوفر الحرية الاجتماعية على أساس أن يأخذ كل مواطن حقه في التعليم والتدريب حتى تكون الفرص متكافئة حقيقة، أي على أساس التمكين لكل مستطيع وراغب، فالتمكين تعليم أولاً، ثم مشاركة فاعلة ثانياً، وليس مجرد سد فراغ في موقع ما، ومن أجل قيام أحسن على الأمور والأعمال تؤسس الفرص لتبادل الأدوار لمن يكتشف عدم قدرته على القيام بعمل ما، وتوفر قدرة أفضل عند غيره للقيام بهذا الأمر أو العمل.

للأخلاق الفردية دور كبير في تقرير حقوق الإنسان وواجباته، ولكن وحتى لا يبقى الناس رهينة الأخلاق الفردية عمد الإسلام إلى تأسيس المجتمع المتعلم المثقف الواعي، الذي يحتكم كل أفراده ليس فقط إلى قانون موحد وإنما إلى وعي اجتماعي يؤمن به الجميع وإن تفاوتوا بالعمل، لقد سعى الإسلام إلى تشكيل الوعي الاجتماعي على أساس إيمان الأفراد وطاعتهم له، فهو مطاع بقناعة أفراده وجماعتهم.

إن التوجه إلى تعليم مجتمع ما تبدأ بتعليم أفراد المؤمنين بالعلم الصحيح لصناعة قناعة كلية بالشريعة العامة أو القانون العام الذي يحترمونه ويؤمنون به، وفي خلاف ذلك يتحول الحكم بالقانون إلى استبداد من قبل من يفرضه، و يتحول إلى نفاق من قبل من يطيعونه دون الإيمان به، وهذا ما عمل الإسلام على تجاوزه وعدم الوقوع به، فذم المنافقين الذين يدعون التصديق في الظاهر وهم مكذبون في الباطن، مهما كانت الأسباب، وذم المرائين والمخادعين في الفعل رغم ادعائهم الإصلاح، وشرط النية الخالصة قبل العمل، أي طالب بمبدأ الحرية القلبية قبل العملية، إذ لا يمكن القهر في النية التي موضعها القلب، وليس في السلوك القولي أو الفعلي فقط، فعمد الإسلام إلى بناء النفسية الصادقة في قلوب المؤمنين به كما عمد إلى بناء العقلية الواعية بحرية وقناعة في المجتمع كله.

الفصل الثالث

التأسيس البياني في خلافة التمكين وبناء المدينة الإسلامية

تمكنت الدعوة الإسلامية في يثرب من تكوين أمة متميزة بعقلها وإيمانها وإرادتها وأعمالها، فتوجهت هذه الأمة إلى النبي عليه الصلاة والسلام طالبة إليه الهجرة إليها، أي إنَّها قررت بإرادتها وحريتها وإيمانها إقامة كيانها السياسي المدني، فأرسلت أكبر وفد من أبنائها يدعون النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن يهاجر إلى دارهم، وإلى أن يوقع معهم عقد دولة سياسة رائدة، وقد تم ذلك فعلاً فيما عرف في كتب السيرة النبوية ببيعة العقبة الثانية أو بيعة الحرب، أي إنَّ المجتمع اليثربي المدني أو الأمة المسلمة التي تشكلت قبل الهجرة في يثرب، قادت مشروعها السياسي بنفسها، وإنَّ انبثاق وجودها السياسي كدولة صادر عن تفاعلات قوى الأمة المسلمة في يثرب، فكونت عقلها الموحد، ونظمت جهودها المشتركة، على أساس من الحرية والتراحم والأخوة والمسؤولية.

وهكذا انبثق عن إرادتها الاجتماعية إرادة سياسية متمثلة في أمة سياسية قائدة، فذهبت هذه الأمة السياسية إلى النبي عليه الصلاة والسلام مطالبة إياه بالهجرة وتأسيس دار الإسلام الأولى، هذه النتيجة نستخلصها من أن بنود العقبة الثانية غير بنود بيعة العقبة الأولى، فقد كانت البيعة الأولى بيعة النساء وقد أطلق عليها البيعة الاجتماعية، وكانت البيعة الثانية بيعة الحرب، وقد أطلق عليها بيعة المدينة الإسلامية السياسية أي بيعة الدولة، لأن شرطها الأول، السمع والطاعة في النشاط والكسل، وهذا أهم شرط في وجود الدولة الحاكمة، ثم الركن الثاني وهو النفقة في العسر واليسر، والركن الثالث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما سبق بيانه.

إن هذا الموقف يعني أن الوعي الاجتماعي الإسلامي في يثرب قد بلغ رشده، فتشاور بأمر الدعوة الإسلامية وأحوالها، وقرر دعوة النبي عليه الصلاة والسلام بالهجرة إلى يثرب، ولذلك وافقوا على كل شروط العباس بن عبدالمطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام حين استوثق لابن أخيه: أن لا يسلموه ولا يخذلوه، وهذا يؤكد أن أهل يثرب من

الأوس والخزرج هم الذين طالبوا بهجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليهم، قال جابر بن عبدالله الأنصاري: (فقلنا: **حتى متى نترك رسول الله يطرد في جبال مكة ويخاف؟**، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا.

فقلنا: يا رسول الله نبايعك.

قال تبايعوني على:

1 ـ السمع والطاعة في النشاط والكسل.

2 ـ والنفقة في العسر واليسر.

3 ـ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

4 ـ وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم.

5 ـ وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة) [1].

هذه بنود بيعة العقبة الثانية وهي عقد سياسي يقيم دولة سياسية، فيها طرفان:

الطرف الأول: أمة سياسية راشدة هي الأمة كلها، تصنع من نفسها أمة ذات حجم أصغر تمثل الطرف الثاني، أي إنَّ الطرف الثاني ينبثق عن الطرف الأول، الطرف الأول أمة ذات إرادة وعقل وقرار لها حقوق وعليها واجبات، تصنعها بنفسها لتحافظ على وجودها وإيمانها.

الطرف الثاني: أمة حاكمة، تمثلت في بيعة العقبة الثانية بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولكنها تتمثل بعد ذلك في أي أمة حاكمة منبثقة عن الأمة الأصل.

الأصل هو الأمة الأم، وهي التي بتفاعلاتها العلمية والعملية تصنع وجودها ومستقبلها، فقد كان المسلمون والمؤمنون من المهاجرين والأنصار في يثرب هم المبادرون إلى البيعة، وعدم ترك الرسول عليه الصلاة والسلام مطارداً في مكة، ولذلك اشترط عليهم النبي عليه الصلاة والسلام وعمه العباس الشروط المغلظة في التزام العقد السياسي وتبعاته، وقال لهم: (فإن كنتم ترون أنكم وافون له **ما دعوتموه إليه**، ومانعوه ممن خالفه

---

(1) السيرة النبوية الصحيحة، الدكتور أكرم ضياء العمري، ج1/ ص 198، وعزاه لمسند أحمد 3/ 322، بإسناد حسن، ومستدرك الحاكم 2/ 624، وصححه وأقره الذهبي.

فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده).

إن هذه البنود والمواثيق تؤكد أن الدولة الأولى في الإسلام قامت على أساس عقد سياسي تمثل فيه طرفان، وليس على أساس الغلبة ولا القوة ولا النصرة العصبية، فقد كانت الهجرة مطلباً من أهل الحل والعقد في يثرب، ولذلك وافقوا على شروطها المصيرية، إذ كيف يشترط رجل على قوم شروط هجرته إلا أن يكونوا قد طلبوا منه ذلك، أي إنَّ ما جرى نوع من الشورى الإسلامية السياسية انتهت بتوقيع عقد سياسي تقوم على أساسه دولة شرعية وقانونية بكل مقاييس أهل السياسة والقانون، قامت على العرض والرضا والقبول والمسؤولية.

وإن من أهم بنود هذا العقد السياسي البند الرابع والذي ينص على وجوب حرية الرأي وفيه: **وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم**. لأن حرية الرأي أساس قيام المدينة القوية، وهذا الوجود تأكد في السور القرآنية التي نزلت في المدينة ومنها سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

في هذا الآية الكريمة أمر للمؤمنين بحرية الرأي بأن يقولوا قولاً سديدا، أي إنَّ يكون رأيهم حراً، فالقول هو الرأي، والسديد هو الحر، لأن من معاني الحر: كل شيء فاخر، وكل فعل حسن، وهكذا يتأكد بالمنهج المعرفي البياني دعوة الإسلام إلى حرية الرأي في القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة.

في مرحلة التأسيس البياني المدني واصلت السور والآيات المدنية التفاعل مع هذه الأمة التي استقبلت الرسول عليه الصلاة والسلام على أرضها وفي قلوبها، مهاجرين وأنصاراً، أمة واحدة من دون الناس، مع قبول واحترام الأمم الأخرى في تركيبة المدينة الإسلامية اجتماعياً وسياسياً، بالرغم من الاختلاف في الدين أو الجنس، وقد بينت السنة النبوية ذلك وجسدته في الخطاب النبوي الأول في المدينة المنورة، والذي أكد على حرية الوجود وحرية الرأي لمن وجد على أرض المدينة من السكان حتى لو لم يكونوا مسلمين، وهذا تتويج علمي وعملي للحرية الإنسانية الجديدة لم تعرفه البشرية من قبل، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (بسم الله الرحمن الرحيم:

1ـ هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين والمسلمين من قريش و[أهل] يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

2 ـ أنهم أمة واحدة من دون الناس.

3 ـ المهاجرون من قريش على رَبعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفْدون عانِيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

4 ـ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

5 ـ وبنو الحارث [بن الخزرج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

6 ـ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

7 ـ وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

8 ـ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

9 ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

10 ـ وبنو النَّبِيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

11 ـ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

12 ـ وأن المؤمنين لا يتركون مُفرَحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

ـ وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

13 ـ وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] من بغى منهم، أو ابتغى دَسيعةَ ظلمٍ، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولدَ أحدهم.

14 ـ ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

15 ـ وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

16 ـ وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

17 ـ وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

18 ـ وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

19 ـ وأن المؤمنين يُبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

20 ـ وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدىً وأقومه.

ـ وأن لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.

21 ـ وأنه من اعتَبط مؤمناً قتلاً عن بيِّنة فإنه قَوَدٌ به، إلا أن يرضى ولي المقتول [بالعقل] وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحلُّ لهم إلا قيام عليه.

22 ـ وأنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن يَنصر محدثاً أو يُؤويه، وأن من نصره، أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

23 ـ وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

24 ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

25 ـ وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته.

26 ـ وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

27 ـ وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

28 ـ وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

29 ـ وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

30 ـ وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

31 ـ وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته.

32 ـ وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

33 ـ وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البرَّ دون الإثم.

34 ـ وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

35 ـ وأن بطانة يهود كأنفسهم.

36 ـ وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

ـ وأن لا يَنْحَجِز على ثأرِ جُرحٍ، وأنه من فَتَك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظَلَم وأن الله على أبَرَّ هذا.

37 ـ وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرِّ دون الإثم.

38 ـ وأنه لا يأثم امرؤٌ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

39 ـ وأن يثرب حرامٌ جوفُها لأهل هذه الصحيفة.

40 ـ وأن الجار كالنفس غير مُضارٍّ ولا آثم.

41 ـ وأنه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها.

42 ـ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدث، أو اشتجار يُخاف فسادُه، فإنَّ مَرَدَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله (ﷺ)، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبَرِّهِ.

43 ـ وأنه لا تُجار قريش ولا مَن نَصَرها.

44 ـ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

45 ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا مَن حَارب في الدين.

ـ على كل أناس حِصَّتهم مِن جانبهم الذي قِبَلهم.

46 ـ وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

47 ـ وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله (ﷺ)[1].

---

(1) مجموعة الوثائق السياسية العهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، الطبعة السادسة، 1407هـ ـ 1987م، ص 59.

أطلق على هذه البنود قديماً: صحيفة المدينة، وأطلق عليها حديثاً دستور المدينة، وقد تناولها العديد من المفكرين بالدراسة والتحليل[1]، لما فيها من قيم إنسانية قيمة، ونحن قبل أن نشير إلى بعض منها نسأل، ما هي الحاجة إلى هذه الصحيفة مع وجود القرآن الكريم؟ أليس القرآن الكريم هو دستور الدولة الإسلامية الجديدة؟ فما الحاجة إلى دستور آخر غير القرآن الكريم؟

الجواب: إنَّ الحكم الإسلامي ودستوره الأساسي هو القرآن الكريم، إلا أنه يتعامل سياسياً مع الواقع، أي إنَّه يعالج الواقع ولا يفرض واقعاً جديداً، وقد كان واقع المدينة مجتمعاً متعدداً في طبيعته وفي معتقداته، متعدّداً في طبيعته: في مكوناته الشعبية القبلية مثل الأوس والخزرج من أهل يثرب، ومن جاء من قريش، القرشيين وغيرهم، وهناك قبائل اليهود وغيرهم، فهذه الأصول العشائرية من المكونات الطبيعية للدولة الجديدة، وأما التعدد الفكري، فهناك المكون الفكري الأول والأكبر وهو الإسلام وهناك اليهود وعقائدهم اليهودية المختلفة، هذا التعدد هو ما جاء الدستور من أجله كما جاء في المادة (25): لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، فالمجتمع الجديد كان في واقعه متعدد القبائل (القوميات) سواء كانوا من المسلمين أو من اليهود.

الدستور لم يتجاهل المكونات الطبيعية والمعنوية ونص على أسمائها، إذ فيه المسلمون واليهود، فالمهاجرون ينحدر غالبيتهم من قريش، والأنصار ينحدر غالبيتهم من الأوس والخزرج، واليهود ينحدرون من بني عوف وبني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وغيرهم، هذا التعدد له حقوق وعليه واجبات، القاسم المشترك بينهم جميعاً أنهم يعيشون في مدينة واحدة، أي في وطن جغرافي واحد هو حق للجميع، في العيش فيه دون

---

(1) انظر: سيرة نبي الهدى والرحمة، عبدالسلام هاشم حافظ، منشورات: رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1402هـ ـ 1982م، ص 169. وكتاب: المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى، الدكتور أكرم ضياء العمري، منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1403هـ ـ 1983م، ص 107، وكتاب: مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام، الدكتور محمد هلال، دار البشير، الطبعة الأولى، 1413هـ ـ 1992م، ص 90. وكتاب: وثيقة المدينة (المضمون والدلالة)، أحمد قائد الشعيبي، سلسلة كتاب الأمة، قطر، الطبعة الأولى، ذو القعدة 1426هـ، كانون أول 2005 ـ كانون ثاني 2006م.

أن يلحقه ظلم بسبب دينه أو معتقده أو جنسه أو قومه أو ما شابهها، فهذه أمور يولد المرء بها و عليها، أي ينشأ عليها، دون اختيار منه، فيهود يثرب تهودوا من آبائهم وهم أطفال دون اختيار منهم.

ولما اختار غالبية أهل يثرب نظام الحكم الإسلامي بإرادتهم الحرة بعد إسلامهم ودعوتهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يهاجر إليهم، كان ذلك حقهم بحكم أغلبيتهم في هذا المجتمع، ولذلك كان من واجب الدستور أن ينظم التنوع الفكري والقومي الموجود في الدولة، بحيث يكون عملهم منسجماً غير متناقض، ومتوافقاً غير متعارض، ومحققاً لمصالح الجميع دون ظلم لأحد، وأحق الناس أن يعرف ذلك في المجتمع الجديد هم غير المسلمين، لأن المسلمين يعرفون حقوقهم وواجباتهم من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ولكن غير المسلمين الذين لا يؤمنون بالقرآن مطالبون بالإيمان بالدستور الذي يحفظ وجودهم الطبيعي والمعنوي في الواقع الجديد دون ظلم ولا اعتداء.

هذا القانون الأساسي هو الذي يدير أمور المجتمع والدولة، ولا يتم تنفيذه إلا بتعاون كافة أفراده وأطرافه وقواه الطبيعية، ولا يتم ذلك إلا بتعبير كل طرف عن مواقفه بحرية تامة، أي إنَّ وضع الدستور والموافقة عليه بكافة بنوده يعطي الحق لكل مشارك فيه أن يحتكم إليه ويعبر عن رأيه، فوجود الدستور بحد ذاته دليل على كفالة حرية الرأي وكافة الحريات الأخرى، ويكفي المسلمين فخراً أنه أول دستور مدون في التاريخ القانوني والسياسي عربياً وإسلامياً وعالمياً، ويكفي المسلمين فخراً أن نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام هو أول من أقام دستوراً على أساس الحرية الفردية والحرية الجماعية للقبائل المكونة للمجتمع الجديد، بغض النظر عما تؤمن به من عقائد أو شرائع، وأنه كفل حرية الرأي لكل مكون من مكونات المجتمع، وكافة حقوقه الإنسانية الأخرى.